جامعة محمد الخامس أكدال
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة كراسات الكلية، رقم 7

# انتصاراً لقيم الفلسفة في الجامعة المغربية

## شهادات وأبحاث مهداة للأستاذ سالم يفوت

إعداد وتقديم
كمال عبد اللطيف

من الصفحة 47 إلى ص 91

## الفصل الثاني

# ما الذي يعنيه التنوير؟

محمد الشيخ

بداية، تحدث فعل "التنوير"، الذي شهدت عليه أوربا إبان القرن الثامن عشر، على الأقل ثلاث لغات أوربية: فهو بحسب التقليد الفرنسي ـ La philosophie des Lumières ـ وهو بحسب التقليد الألماني ـ Aufklarung ـ حيث تطغى على اللفظ الألماني الصيغة الفعلية (فعل "نَوَّرَ" أو "أوضح") على الصيغة الإسمية الجامدة، وهو بحسب التقليد الإنجليزي ـ Enlightenement. وهكذا حين كتب الفرنسيون عن الأنوار "الأوربية" ـ شأن بول هازار وكتابه الشهير عن فكر القرن الثامن عشر[1] ـ ركزوا بالخصوص على تقليدهم، فكنت تجدهم أكثر ما يشيروا إلى أسماء فرنسية أنظار مونتسكيو وروسو وفولتير وديدرو ودالمبير وغيرهم. وحين أنشأ الألمان المجامع التأليفية في فكر الأنوار وجدتهم، وإن هم أقروا بالأثر الفرنسي والإنجليزي، أكثروا من ذكر مفكري الأنوار الألمان من أمثال ليسنج وهيردر ومندلسون وكانط وفيلاند...وعندما كتب مفكر إنجليزي ـ وليكن أشعيا برلين مثلا[2] ـ عن فلاسفة التنوير ركز على الإنجلوسكسونيين منهم بالخصوص، من أمثال جون لوك ودافيد هيوم وجورج بيركلي. وقد كتب موسى مندلسون بتاريخ 20 فبراير من سنة 1758 يقول: ما كان الإنجليز فلاسفة إلا إلى حد معين يقفون عنده فلا يتجاوزونه، وذلك لأن العزة تأخذهم إلى الحد الذي تمنعهم فيه من قراءة

---

1 – أنظر كتاب بول هازار الشهير: **الفكر الأوربي في القرن الثامن عشر**: من منتسكيو إلى ليسنج. في جزأين. ترجمة محمد غلاب. دار الحداثة. الطبعة الثانية. 1985.

2 – أنظر كتاب إيسايا برلين: **عصر التنوير**. ترجمة فؤاد شعبان. منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دمشق 1980.

كتب الألمان، ولأنهم مقبلون على لذاذة العيش إلى الحد الذي يمنعهم من التغلغل إلى أعماق الفكر. أما الفرنسيون، فهم ساطعون طائشون سطحيون. وبالجملة، إن الإنجليز يتفلسفون بأحاسيسهم، والفرنسيون بنكاتهم، أما الألمان فهم وحدهم الذين يتفلسفون بعقولهم! وقد اشتط مندلسون في حكمه وما أنصف!

أما في فكرنا العربي، فإن معنى "الأنوار" و"التنوير" لم تتجدد دلالته إلا عند نهاية القرن التاسع عشر، وذلك بعد أن احتكت البعثات العلمية العربية بالفكر الأوربي بعامة والفكر الفرنسي بخاصة. فقد دلت لفظة "الأنوار" في اللسان العربي على معاني "الضياء" و"السناء" (إجماع المعاجم)، ودلت كلمة "الإنارة" على "التبيين" و"الإيضاح" (تاج العروس)، ودل لفظ "التنوير" على معاني: "الإنارة" و"الإسفار" [الإصباح] و"الإزهار" (الصحاح، تاج العروس، أساس البلاغة)، وعلى معنى "التبيين"، وعلى معنى "الإدراك" (من أدرك الزرع بمعنى نَوَّرَ)، بل أرشد هو إلى عكس معناه الأوربي حين أفاد معاني "السحر" و"الخداع" و"الشعوذة" (نَوَّرَ عليه الأمر بمعنى سحره وخدعه)، ودلت لفظة "التَّنَوُّر" على معنى أن يطلى المرء بمادة النورة، وأن ينظر المرء إلى المرء من وراء النار بحيث يَرى ولا يُرى، وأفادت لفظة "الاستنارة" معنى "اقتباس النور" أو "أخذه" (تاج العروس)...بما نبه إلى أن العرب القدامى ما عرفوا للتنوير ولا للأنوار من المعنى الأوربي الحديث شيئا. أكثر من هذا، كم من الكتب العربية القديمة تَسَمَّت باسم "الأنوار" ـ شأن "كتاب الأنوار"، و"مطالع الأنوار"، و"الأنوار السنية"، و"رسالة الأنوار"... ـ أو وسمت بوسم "التنوير" ـ مثال "رسالة التنوير"، و"التنوير في إسقاط التدبير" ـ وما نشدت هي "الأنوار" بمعناها الحديث، وإنما الأنوار الدينية واللدنية هي رامت. وذلك حتى أن الرحالة والعلامة العربي فارس الشدياق، من أعلام القرن التاسع عشر، ظل يتحدث عن "الأنوار" بمعناها القديم.

أورد في كتابه الشهير الحوار التالي: «ثم قالت: أخبرني عن الأسواق. فقلت: طويلة عريضة واسعة كثيرة الأنوار بحيث لا يمكن للرجل أن ينفرد بامرأة أصلا». والبادي أن أحد أقدم استعمال للفظ "الأنوار" بالمعنى الأوربي الحديث أجري على قلم العلامة العربي رفاعة الطهطاوي وهو يدون رحلته التعليمية الشهيرة إلى أوربا حيث كتب يقول عن وضع رجال الدين بفرنسا: «(...) ولا تعظم القسس في هذه البلاد إلا في الكنائس عند من يذهب إليهم، ولا يسأل عنهم أبدا، فكأنهم ليسوا إلا أعداء للأنوار والمعارف». كما أن أول احتكاك عربي بكتابات فلاسفة التنوير ما تعلمه الطهطاوي سنوات التعلم بباريس، والذي قال عنه: «(...) وقرأت أيضا مع مسيو شواليه جزئين من كتاب يسمى روح الشرائع مؤلفه شهير بين الفرنساوية يقال له منتسكيو، وهو أشبه بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية، ومبني على التحسين والتقبيح العقليين، ويلقب عندهم بابن خلدون الإفرنجي، كما أن ابن خلدون يقال له عندهم أيضا منتسكيو الشرق؛ أي منتسكيو الإسلام. وقرأت أيضا في هذا المعنى كتابا يسمى عقد التأنس والاجتماع الإنساني مؤلفه يقال له روسو، وهو عظيم في معناه. (...) وقرأت عدة محال نفيسة في معجم الفلسفة للخواجه فولتير وعدة محال في كتب فلسفة قندلياق»[3].

لكن، عد بنا من جديد إلى فكر الأنوار نستطلع طلعه: الحق أن لحركة التنوير أصولها المخصوصة، وجذورها المميزة، وتطورها الخاص، وانشقاقاتها الداخلية، ولحظات أزمتها وإحيائها وتفسخها. فهي نتاج مجهودات أناس كانوا يعون بأمرها تمام الوعي، ويبحثون عن أشكال متجددة لرص صفوفها وللحراك والعراك الفكري والاجتماعي، ويُقَوِّمون أثرهم على المجتمع الذي يحيط بهم، وقد أخذوا في الوعي بالمنزلة التي

3 – رفاعة الطهطاوي: **تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز**. دار ابن زيدون/مكتبة الكليات الأزهرية. بيروت – القاهرة. الطبعة الأولى. بدون سنة إصدار. ص. 185 و233.

يحتلونها داخل المجتمع وفي خضم التاريخ. وقد حدد أحد مؤرخي الفكر المعاصرين ما وحد فكر الأنوار بقوله: «من لوك إلى فريدريك الثاني، ومن نيوتن إلى جوزيف الثاني، ومن دالمبير وفولتير إلى كرستيان فولف وجوزتوس موزير، كان لا بد للفكر أن يختار منحى يوشك ألا يتناهى، لكي يجمع بين أفراد متباينين إلى هذا الحد. ومع ذلك، ينبغي أن نعتبر مجموعة هذه الطائفة على أنها ممثلة لاتجاه واحد، لأنهم جميعا ـ مع شيء من التفاوت أعداء للقديم، أعداء للعصر السابق، وهم جميعا يحترمون العقل، بدرجات متفاوتة أيضا، وهم جميعا يبحثون في أمر الشرائط التي تجعل الحياة البشرية حياة سعيدة وميسورة...»، وأضاف بول هازار: «وصحيح أن هؤلاء الأفراد يؤلفون طائفة، بل لربما حتى جاز القول: جماعة أخوية، لأنهم كانوا يلتقون في إرادة مشتركة، ويعتقدون أنهم يسيرون بخطى متحدة نحو غاية بعينها، وكان هدفهم "الأرض الموعودة"، بل كانوا يلمسونها»[4]. وقد حدد إرنست كاسيرر في كتابه "فلسفة الأنوار" سمات ذاك العصر بقوله: «عصر الأنوار هو عصر "المستبدين المتنورين"، وعصر إشعاع "الحقيقة"، وعصر "انتشار العلم" وصراع "العقل" ضد "الظلمات" وإعادة التفكير في العالم على ضوء العقل بوصفه "نورا طبيعيا"»[5]. فقد تحصل، أن اسم "فكر الأنوار" أو "فلسفة الأنوار" ـ أو ببساطة: "التنوير" ـ إنما يطلق على تلك الحركة الفكرية التي نشأت في القرن الثامن عشر، والتي كان من سماتها أن هي دعت إلى التمرد على قوالب التفكير اللاهوتية القديمة، ونادت بإعادة الاعتبار للإنسان وللطبيعة، وطالبت بتحقيق الحرية والعدالة والمساواة، ورامت الإيمان بالتقدم والتطور، ونشدت العمل على إسعاد البشرية...

---

4 – بول هازار: **الفكر الأوربي في القرن الثامن عشر**. الجزء الثاني. ص. 6.

5 - Ernst Cassirer, La philosophie des lumières, traduit par Pierre Quillet. Paris: Fayard. 1983. p. 23.

هذا ولئن هو كان يعود الفضل إلى الفرنسيين في إشاعة فكر الأنوار، فإن هؤلاء مارسوه وزاولوه بالفعل، وما هم نظروا في أمر "الأنوار" النظر. وتلك كانت مهمة مفكري الأنوار من الألمان عند نهاية القرن الثامن عشر (1783-1787). فهم أول من بادر إلى طرح السؤال: ما هذا الذي يعنيه "التنوير"؟ وأجابوا عنه إجابات شتى كل بحسب جهده وموقعه ضمن هذه الحركة. خذ بنا، بدءا، نستقرئ أمر هذه الإجابات.

ما هذا الذي يعنيه فعل "التنوير"؟

## -1-

## حكاية سؤال

لسؤال التنوير حكاية، وبدايتها مقالة. وهي مقالة جدية كل الجدية كتبها أحد أبرز المثقفين التنويريين الألمان يوهان إريش بييستر (1749-1816) Johann Erich Biester ـ مدير "مجلة برلين الشهرية" التي أسهمت أيما إسهام في حركة التنوير الألمانية ـ في شتنبر من عام 1783 تحت عنوان : "مقترح بعدم إزعاج رجال الدين عند إجراء مراسم الزواج". وقد ورد فيها، على وجه الخصوص، ما يلي: إنه لما كان الزواج من سنن الطبيعة، وكان عقده شأن بقية العقود مدني الطبيعة، ولا فضل، فإن من المستغرب حقا أن يحظى دون غيره بتبريك رجال الدين. ويمضي بييستر متسائلا متشككا مستشكِلا: أَوَ ليس يعود هذا الأمر، في جزء منه، إلى رغبة هؤلاء في التسلط؟ أَوَ لهذا أعلن البابا أن ما من زيجة لا يشهد عليها قس إلا وتعد باطلة؟ أَوَ ليس في هذا الأمر ضرب من "توسيل الدين"؛ أي اتخاذه وسيلة بغاية كسب النفوذ واكتساب السلطة؟ الحق أن ما يقول به الحس السليم هو أن على مراسيم الزواج أن تتم بوفق الطبيعة والعقل وأحوال الناس، لا بوفق ما يترسمه رجال الدين. إذ في اعتبار الناس "المتنورين" ما كان

الزواج بحاجة إلى مثل ذاك الترسيم والتبريك والتيمين. أما أولئك "غير المتنورون" فإنهم يرون أن لا أحفظ للزواج من الدين، ومن ثمة كان هو بحاجة إلى ترغيب رجال الدين فيه وترهيبهم من هجرانه.

بيد أن هذا المقال أثار حفيظة قس بروتستانتي يدعى يوهان فريدريش تسولنر Johann Friedrich Zollner (1753-1804)، فكتب في دجنبر من سنة 1783، وبالمجلة المذكورة آنفا، مقالا تحت عنوان: "أمن الأليق ألا يتكفل الدين بترسيم الزواج وتبريكه؟" ومجمل جوابه أنه لما تعلقت أمور الزواج بمسائل "الضمير" وما يترتب عليها ـ النية، الإخلاص، القسم، السعادة الزوجية ـ ونقائضها ـ الإكراه، الكذب، نقض العهد، الحنث، الشقاء ـ ومتت هذه الأمور عن الضمير الديني بوشائج، فإنه من الطبيعي أن يتكفل الدين ورجاله بأمر الزواج التكفل الشرعي. وفيما يخص تمييز بييستر بين المواطنين المتنورين وغير المتنورين، فإن تسولنر ما فتئ أن استنكر عمل «أولئك الذين يصرفون كل عنايتهم إلى هدم أسس الأخلاق، وإنكار قيمة الدين، والتلاعب بعقول الناس وقلوبهم، وذلك بِتَعِلَّةِ تنويرهم»، متوقفا ههنا ملية ومبديا على هامش مقاله الملاحظة التالية: «ما هو التنوير؟ تكاد أهمية هذا السؤال أن تكون بمثابة أهمية سؤال آخر هو: ما هي الحقيقة؟ إنه لمن المفروض أن يُجاب عن هذا السؤال قبل أن يُشرع في فعل "التنوير"! لكن، إلى حد الآن ما عثرت لهذا السؤال من جواب في أي مكان فتشت عنه، وما قصرت في تفتيشي قط».

هو ذا السؤل، وهذه حكايته. أما الجواب عنه فقد استدعى تدخل نخبة من مفكري التنوير الألمان أهمهم ثلاثة: مندلسون (1729-1786)، وكانط (1724-1804)، وباهردت (1741-1792).

## - 2 -

## «حول السؤال: ما هو التنوير؟»

### موسى مندلسون: شتنبر 1784

تحدث مندلسون عن أمور ثلاثة تهم مسألة التعريف بالتنوير: معناه، وأبعاده، وأخطاره. ففيما يخص معنى التنوير انتهى إلى تقرير الحقائق التالية: ماهية "التنوير": إعلم إعلام تنبيه لا إعلام تعليم أن حقيقة "التنوير" أنه معرفة عقلية، وأن وظيفة "التنوير" إنما هي إكساب الإنسان المقدرة على إعمال تفكيره في شؤون الحياة الإنسانية، وأن غاية "التنوير" لا تخرج عن تحقيق غايات الإنسان الأسمى الأربع؛ وهي: استكشاف الحقيقة، والتعلق بالجمال، والتوق إلى الخير، وفعل الأعمال الصالحات. ذاك هو تحديد مندلسون للتنوير طبيعة ووظيفة وغاية.

أما أبعاد "التنوير" فقد أمكن إجمالها فيما يلي: ثمة مسيس حاجة للإنسان إلى التنوير. وهي حاجة ما كان من شأنها أن تنكر. إذ التنوير مطلب إنسي. وهو مطلب جوهري للإنسان بغاية تحقيق إنسيته. لكن ههنا حاجة الإنسان، من حيث ما هو إنسان، إلى التنوير، وحاجة المواطن، من حيث ما هو عضو في المجتمع، إلى الفعل ذاته. وإن تنوير الإنسان ليتعلق بكنه الإنسان من حيث ما هو إنسان، أما تنوير المواطن فيتصل بمطالب "الوظيفة" التي يؤديها و"الوضع الاجتماعي" الذي يشغله. والحال أن هذين الجانبين المتكاملين من التنوير يمكن، في بعض الظروف التاريخية والاجتماعية، أن يبلغا حد الصراع والتناقض.

هي ذي المخاطر التي قد تترتب على "التنوير". إذ يمكن أن يحدث الصراع بين تنوير الإنسان من حيث ما هو إنسان، وتنويره من حيث ما هو مواطن: فبعض المعارف الصالحة للإنسان من حيث صفته الأولى [معارف

نقدية] قد تكون ضارة به من حيث صفته الثانية [مطلب طاعة قوانين الجماعة]. قال مندلسون: «شقية هي الدولة التي تحتم عليها الظروف أن تعترف بأن حقيقة الإنسان ومصيره فيها كإنسان لا ينسجم مع حقيقته ومصيره كمواطن». وإنها لدولة يجد أفرادها أنفسهم بين قرني إحراج: للإنسان غايات أساسية وثانوية ـ وهو في حاجة إلى تنوير دائم ـ إذا ما أجبرته الظروف على التخلي عن الأوائل ما عاد إنسانا وتقهقر الحال به إلى مرتبة الحيوان، وإذا ما أجبرته الظروف على التخلي عن الثواني ما بقي هو كما الغاية التي ينشدها؛ أعني مخلوقا طيبا ورائعا. وبالتلقاء، بلا غايات الإنسان ـ بوصفه هذه المرة مواطنا ـ يختفي دستور الدولة، وبلا غاياته الثانوية لا يبقى الدستور هو هو في بعض الظروف الاستثنائية.

ويختم مندلسون جوابه بالتعبير عن مخاوفه من أن يقود تطرف التنوير ـ بحسب ما سيجري عليه الحال بفرنسا أيام الثورة ـ إلى انهيار الدولة والمجتمع. إذ بقدر ما يكون المرقى عظيما يكون المهوى عميقا. قال الرجل: «كلما ازداد الشيء نبلا وكمالا، زادت بشاعة فساده وتحلله. فالخشب الذي يفسد ليس في بشاعة الوردة التي تفسد، وهذه لا تثير الاشمئزاز بقدر ما تثيره جثة حيوان متعفن، كما أن هذه بدورها ليست بأبشع من جثة إنسان تعرضت للفساد. والأمر كذلك مع الحضارة [الثقافة] والتنوير. فكلما ازدادا نبلا في حالة ازدهارهما، زادت بشاعة تحللهما وفسادهما. إن إساءة استخدام التنوير يضعف الشعور الأخلاقي ويؤدي إلى التصلب والأنانية والكفر والفوضى. وإساءة استخدام الحضارة [الثقافة] يفضي إلى الترف والنفاق والخرافة والعبودية. وكلما تقدم التنوير جنبا إلى جنب مع التحضير [أو التثقيف]، كانا أفضل وسيلة لوقف الفساد ـ والثقافة التي تسود في أمة من الأمم نتيجة امتزاج التنوير بالحضارة تجعل هذه الأمة أقل عرضة للفساد».

## - 3 -

## «الإجابة على سؤال: ما هو التنوير؟»

### كانط : دجنبر 1784

حقيقة "التنوير" أنه خروج الإنسان من حال وانتقاله إلى حال: أما الحال الأول فهو حال الوصاية أو الحجر. وأما الحال الثاني فهو حال الاستقلال الفكري أو التحرر. فمن شأن التنوير أنه ما به يخرج الإنسان ـ أو بالأحرى يُخرج نفسه ـ من وضع التابع لغيره الإِمَّعَة الإِمَّرَة إلى وضع المستقل المتحرر؛ أي إلى وضع المفكر بتفكير حر لا وصاية عليه ولا حجر. ذلك أن الأصل في الإنسان أن يكون "مفكر نفسه"، وأن لا يكون الغير له مفكرا بالنيابة. أكثر من هذا، يرى كانط أن من واجب الفرد أن يفكر بنفسه، بل إن هذا الأمر لمن أوجب الواجبات وأوكدها. إذ من شأن فعل "التفكير" أن لا يقبل التصريف إلا بضمير المتكلم: "أنا أفكر"، ولا يوجد تفكير بالنيابة أو بالوكالة أو بالبدل والعوض: "الغير يفكر لي"، أو "السوى يفكر بدلا مني". وبالجملة، إن شعار التنوير الذي يلخص حقيقته هو: «فلتكن لديك الشجاعة لاستخدام عقلك»، أو قل: «تجرأ على أن تفكر [بنفسك]Sapere Aude». والحال أن هذا الشعار ـ الذي انوجد في رسائل الشاعر اللاتيني هوراسيوس ـ كان رائجا على عهد كانط كل الرواج، وذلك حتى أنه صار مسكوكا على بعض العملات والميداليات والمنقوشات والمنحوتات، واتخذ ترويسة للعديد من المطبوعات، بل وجعل شعارا لإحدى أهم الجمعيات التنويرية الألمانية (جمعية محبي الحقيقة Aléthophiles المتأثرة بفلسفة وولف أستاذ كانط). وقد ترجم هذا الشعار بمعان ذوات فروق دقيقة شأن: «فلتكن لديك الشجاعة على أن تكون [عالما] فاضلا» (ترجمة الفرنسي داسييه)، أو «أجرؤ على أن تعرف» (ترجمة الإيطالي دا

فليني)، أو «ثق بعقلك أكثر مما تثق بالكتب» (ترجمة الإنجليزي ريتشارد بنتلي)...وكلها ترجمات تمت في القرن الثامن عشر، فأخذ كانط روحها وأعملها في توليد معنى جديد اتخذه هو شعارا لعصر التنوير في مجمله.

لكن، دعنا بداية نتساءل: ما الذي يدفع المرء إلى تقديم استقالته من مجال الفكر والقبول بأن يفكر الغير، كائنا ما كان، بالبدل عنه والعوض؟ أَلسبب داخلي يكون هذا الأمر أم لقهر خارجي؟ يستبعد كانط السبب القهري الخارجي، وحتى إن هو حدث له أن استحضره، فإنه لا يفعل ذلك إلا بوصف هذا العامل عاملا مساعدا ومشجعا. أما الثقل كله والمسؤولية أكثرها فيتحملها الفرد نفسه. إذ المسؤول عن غياب الشجاعة على إعمال الفكر هو المعني بالأمر نفسه. فأمر القصور إذن أنه ذاتي، والسبب فيه عاملان ذاتيان جوانيان صرفان: الكسل والجبن. فمن عوائد المرء أن يكسل عن النظر، وان يجبن عن إعمال الفكر. والحال أنه إذا ما نحن أمعنا النظر في هذين العاملين وجدناهما يلعبان دورا مثنويا: فهما، من جهة أولى، يمنعان الفرد المعني بالأمر من أن ينظر أمره ويتدبره، ويشجعان الآخرين، من جهة أخرى، على الحجر عليه بالتفكير بالبدل منه والعوض. وإن لمن شأن لسان حال الفرد الموصى عليه أن يقول: «إن الوصاية عَليَّ لمريحة! وما دمت أجد الكتاب الذي يفكر لي، والراعي الروحي الذي يغني ضميره عن ضميري، والطبيب الذي يقرر لي نوع الطعام الصحي الذي أتناوله، فما حاجتي لأجهد نفسي؟ ليست هناك ضرورة تدعوني للتفكير، ما دمت أقدر على دفع الثمن، وسوف يتكفل غيري بتحمل مشقة هذه المهمة الثقيلة». هو ذا حال أغلب الناس وأكثريتهم. والحال أنه لا موصى عليه من غير وصي. وإنما أمر هذا الوصي أن يحيا بتنمية الخوف من إعمال العقل لدى الموصى عليه، وكأن لسان حاله يقول إذ يخاطب المذعور من التفكير: "ما أهول التفرد بالفكر، وما أخطر إعمال النظر بالمفرد. يكفيك أن تلتزم بالتعليمات

التزاما وأن تعمل بالقواعد العمل". ثم ما يفتأ يزايد فيخاطب جمهور المحجر عليهم ـ وما أكثره ـ «لا تفكروا! فالضابط يقول : لا تفكروا، بل تدربوا! والخازن يقول: لا تفكروا، بل ادفعوا! ورجل الدين يقول: لا تفكروا، بل آمنوا». وليس يقف الأمر بالموصى عليهم عند حد العجز عن التفكير، بل يتعداه إلى التملي بهذا العجز والاستنامة إليه، بله التطبع به والتعشق له. فهو عجز إرادي، وتوقف عن التفكير مشيئي. وما تفتأ العادة بعدم إعمال الفكر تصير عادة منشئية، ومن شأن العادة المنشئية أن تصير طبيعة ثانية.

هو ذا أصل الداء، أما الدواء فهو أن يقوم الجمهور ـ الرأي العام ـ بتنوير نفسه. والمدخل إلى هذا الفعل أمر واحد ووحيد: بث حرية إعمال الفكر في نفوس الناس. الحرية إذن وقبل كل شيء! ذاك هو المطلب. إنما أمر الحرية أنها هي ما به يقوم التنوير ويتمكن من الأنفس. والمقصود بهذه الحرية، عند كانط، حرية الكلام وحق إبداء الرأي الحر قولا وكتابة. هي ذي الحرية التي يسميها فيلسوف كونجسبرج "حرية الاستخدام العلني للعقل"؛ بما يعنيه من حرية ممارسة الفكر ممارسة صريحة في كل ما من شأنه أن يمس الصالح العام، وبما يفيده من معنى الحرية الأكاديمية أو حرية العلماء في استعمال عقولهم وعرض آرائهم على قرائهم: «أقصد باستعمال الإنسان لعقله الخاص ذلك النوع الذي يمارسه العالم قِبَلَ جمهور قرائه». وهي أخف الحريات ضررا. ويقترن مفهوم "الاستخدام العلني للعقل" بمفهوم آخر استحدثه كانط استحداثا؛ وهو مفهوم "الاستخدام الخاص للعقل"، ذاك الاستخدام الذي يقتصر فيه العقل على مجال الوظيفة أو المهنة: «وأما الاستعمال الخاص للعقل فأعني به حق هذا العالِم في استعماله [أي استعمال العقل] في منصب يشغله أو وظيفة عهد إليه القيام بها في المجتمع المدني». إذ يجد الضابط ودافع الضرائب ورجل الدين، مثلا،

أنفسهم في وضع إشكالي: أيسمح لهم، بصفتهم العلمية، أن يوجهوا النقد كما شاءوا إلى المؤسسات التي يشتغلون في إطارها؟ أم يفرض عليهم طاعة الأوامر حتى لا يضطرب نظام الدولة وأمنها واستقرارها؟ والذي عند كانط أن: «الاستخدام العلني العام للعقل ينبغي أن يبقى حرا في كل الأوقات، وهو وحده القادر على نشر التنوير بين الناس، أما استعمال العقل استعمالا خاصا فيجوز في أحيان كثيرة أن يقيد تقييدا شديدا، دون أن يؤدي هذا بالضرورة إلى إعاقة تقدم التنوير بصورة خطيرة». فإذن، وجب التمييز في إعمال الفرد عقله بحسب ما ينتسب إليه: إنْ بوصفه موظفا، فلا يجوز له الانتقاد العلني وشق عصا الطاعة، وإنْ بوصفه عالما، فإنه يجوز له النظر في مثل هذه الأمور التي يجد فيها شططا.

وأخير كتب كانط منبها متنبئا: «لو سأل سائل: هل نحيا اليوم في عصر متنور؟ لكان الجواب: لا، بل في عصر التنوير. ولو قسنا الأمور بالأوضاع الراهنة في مجموعها لقلنا: إن الناس ما يزالون بعيدين عن استخدام عقولهم المستقلة في أمور الدين استخداما صالحا واثقا بدون توجيه من غيرهم، وأنهم ليسوا على استعداد لذلك ولا هُيئوا للقيام بهذه المهمة. ومع ذلك، يمكن القول بأن هنالك من الدلائل ما يشير إلى أن المجال قد فتح أمامهم للسعي نحو تحقيق هذا الهدف بحريتهم، وأن العقبات التي تقف في وجه التنوير العام أو في وجه الخروج من حالة القصور التي اقترفوها في حق أنفسهم قد بدأت تقل بالتدريج». وتلك كلمة كانط الأخيرة.